قرية من الإنديز

أخبرني رجل من هافانا، قال:

قبل ثلاثين عاماً أو تزيد غادرت قريتي الحالمة الوادعة، المتربعة على عرش جبال الإنديز، وكان أهلها قلة مقارنة باليوم، يشتغلون بزراعة أرضهم الخصبة، ويرعون ماشيتهم القليلة، ويتعاونون فيما بينهم في مواسم الحصاد وفلاحة (البلاد) رجالاً ونساءً، ولا يكادون يفترقون إلا حين تأذن الشمس بالمغيب، وتجدهم يداً واحدة في الأفراح والأتراح، منتمين للأرض، منافحين عن العرض، مُعلين من قيمة الجار وحماية الذمار.

وكنت لا أنقطع عن زيارتهم بين الفينة والأخرى، وفي كل عام تقريباً كنا نفقد مجموعة من أعمدة قريتنا، وكلما سقط هرم منهم نما مكانه ورم من خَلَفِه، يتكئ على أمجاد أبيه وجدّهِ، وما بلغ ربع جدّهِ ولا نصيف أبيه، ويحاول أن يكون مثلهما، لكنه في كل مرة لا يزيد الطين إلا بلة، ولا الفتق إلا اتساعاً، فأصبح معول هدم لا معول بناء، وعامل شتات وتفريق لا عامل التئام ووئام.

سكت قليلاً وتنهد، ثم أكمل:

عندما أستعيد ذكرى طفولتي وصورة قريتي أشعر بالمرارة، بعد أن تبدلت الأحوال، وأصبح الودُّ بين أبناء القرية أشبه بالمحال، بل وصل الحال إلى البحث عن كل ما يثير الأحقاد والضغينه، وكل ما يجلب الفرقة والخلاف.

استغنى كل واحد عن الآخر بماله وكثرة عياله، وارتفعت الأسوار وأغلقت الأبواب، وتفرغ الرجال لمراقبة بعضهم بعضاً والكيد لبعضهم البعض، تحسبهم جمعاً وقلوبهم شتى، ما اجتمعوا على كلمة قط منذ ذلك اليوم الذي تقدم فيه

الهامشي، واستشير فيه الأحمق، وأصبح الذنب مكان الرأس، فلم تقم لهم قائمة من حينها، بل أصبحوا أضحوكة القرى من حولهم، بعد أن كانوا منارة لها.

قلت : وما الذي دعاك يا صاحبي لقول كل هذا الكلام ؟!

قال : دعاني إليه أمر هو عندهم جلل، بينما الناس من حولهم قد تجاوزوه منذ سنين طويلة، وهم إلى اليوم يلتّون ويعجنون، ويعِدُون ويخلفون، ويعاهدون وينقضون، وأذكر أنني قلت لهم ذات يوم في أحد مجالس المعاهدات تلك:أنتم أتباع نسوان، وما اتفقتم عليه في الليل ستنقضه شمس الصباح، فغضبوا عليَّ واستشاطوا، وأرعدوا وأزبدوا، لكنهم لم يتفقوا كما أخبرتهم إلى اليوم.

قلت له : عفواً، وما دخل النساء بالموضوع؟! وهل تحتقر النساء؟!

قال : يا صاحبي على رسلك، فقد ذكرت النساء لأن الأمر حينها كان يخص النساء، وهو تحديد مهور بنات القرية بهدف تخفيف أعباء العرسان، وأنا لا أحتقر النساء، لكنني كنت أعلم أنهن لن يقبلن حينها تقليل مبالغ مهورهن، وهذا ما حصل فعلاً، وتبخرت كل تلك الاتفاقات الليلية في صباح اليوم التالي.

واليوم، ها هو التاريخ يعيد نفسه، حيث إن بعض أولئك وأبناء بعضهم بدأوا في اللت والعجن من جديد في موضوع له علاقة بالنساء أيضاً، وهو الزواج الجماعي، لنفس الهدف وهو تخفيف التكاليف على العرسان، ولم يتفقوا فيه ولن يتفقوا حتى تقبل النساء، وأنت تعلم بأن كل امرأة تريد أن تكون متفردة ومهمة وفي المقدمة، ويقام لها حفل زواج بمفردها، وطالما المرأة لم تغير قناعاتها ولم تتنازل لأشنابهم فلن يتفقوا.

لذلك، وبعد فشل جهودهم في إقامة زواج جماعي، لجأوا إلى حلول أخرى لتقليل التكاليف، فنادى بعضهم إلى تفريق جماعة القرية إلى أقسام بحسب المكان، فلا يحضر زواج فتى من الشرق إلا أصحاب الضفة الشرقية، ولا يرافق بنتاً من بنات الضفة الغربية في زواجها إلا أبناء الضفة الغربية، بحجةٍ فيها نوع من الوجاهة وهي أن الحال الأولى التي كان يُدعى فيها الجميع، فيها الكثير

من الإسراف حين (يحتصي) صاحب الحفل لجميع المدعوين فلا يحضر منهم إلا ربعهم، وأن عائلة واحدة الآن أصبحت تعادل تعداد القرية كاملة قبل ثلاثين سنة، وأن استمرار الحضور مع جميع عرائس وعرسان القرية فيه الكثير من التكاليف المادية والارتباطات، وتضييع الإجازات في متابعة ومطاردة الزواجات، وقد أتى معارضوهم بحجة أخرى فيها وجاهة أيضاً، وهي أن هذه الخطوة تشتت الشمل وتفرق الجماعة، وتتجاهل وشائج القربى والصداقات، وتقلل من قيمة وهيبة القرية والجماعة أمام قرى وقبائل الإنديز الأخرى.

وكما ترى يا صاحبي، فإن المشكلة عويصة كما يبدو.

قلت له: المسألة ليست عويصة أبداً، والحل سهل جداً ويرضي جميع الأطراف، الذين أرى بصراحة أن وجهة نظر كل منهم مقبولة، وسأقول لك ماذا نفعل نحن في قبائل الهنولولو، وانقله إلى ربعك بحذافيره لعلهم يقتنعون به، ولكن بشرط.

قال : هات علمك وشرطك.

قلت : أما الشرط، فهو أن تمسكوا بأذن كل معارض وتلقوا به خارج المجلس كائناً من كان، وتهجروا زواج أبنائه وبناته حتى يقتنع ويعود لجماعته من جديد، وربما يتفق منكم قلة في البداية، لكنهم سيتكاثرون حتماً حين يشعرون بنجاح خطوتكم.

أما تجربتنا في هنولولو فهي كالتالي:

بدلاً من (رِفْد) كل متزوج بخمسمائة دولار، ثم نجد أنفسنا قد خسر كل واحد منا عشرة آلاف دولار في عشرين زواجاً، وبدلاً من أن يخسر كل عريس خمسين ألف دولار، ثم نجد أن الجميع خسر مليون دولار في عشرين زواجاً، فإن كل فرد منا يدفع في العام ألف دولار فقط، فيكون المبلغ كبيراً جداً، ونستأجر به أفضل شاطئ في هنولولو، و(نعزم) مايكل جاكسون ليحيي الحفل عند الرجال، وشاكيرا لإحياء الحفل عند النساء، وبعد نهاية الحفل نحسب المتبقي من المبلغ الذي تم جمعه ثم نقسمه على العرسان، وبدلاً من أن يخسر العريس في حفل

زواجه ويثقل كاهله بمبالغ طائلة تقف له ولعروسه حجر عثرة لسنين طويله، نجده يكسب في جيبه مبلغاً يدخل السرور على قلبه وقلب زوجته.

قال لي صاحبي: (صبّه ردّه)، أنت تعيدنا إلى موضوع الزواج الجماعي الذي تعلم أن جماعتنا لن يتفقوا عليه.

فقلت له: هذا هو الحل الوحيد أمامكم، وهو الحل الذي يرضي جميع الأطراف، ويحقق الصالح العام، فلا أنتم أسرفتم، ولا أنتم انشغلتم طيلة الإجازة، ولا أنتم قاطعتم بعضكم البعض وتفرقت جماعتكم.

قال: جماعتي وأعرفهم، لن يتفقوا.

قلت: إذاً.. دعوا الاتفاق والتنظيم للنساء، فإنهن، فيما يبدو، أبرك وأفضل وأقدر على الاتفاق منكم، وسيجدن حلاً لا محالة، وتفرغوا أنتم لمراقبة بعضكم البعض.

obeikandl.com